

الجاحظ ورسالة الترييع و التدوير (التحليل الأدبي)

شهيا بوانا*

Abstract: *Risalah atau surat menyurat, merupakan salah satu peninggalan sastra Arab yang banyak didokumentasikan dalam khazanah sejarah sastra Arab. Sejak manusia mengenal tulisan, surat termasuk salah satu fasilitas komunikasi yang efektif, oleh karena melalui surat, ungkapan-ungkapan yang tidak dapat disampaikan secara langsung dapat diwujudkan. Surat menyurat dalam sejarah sastra Arab mengalami zaman keemasannya pada masa kekuasaan Bani Abbas. Utsman ibnu al-Jahiz, linguis dan sastrawan Arab, banyak menulis karya-karya sastra. Salah satunya Risalah al-Tarbi' wa al-Tadwir yang disusun dengan format karikatur yang menggambarkan karakteristik lawannya dalam kancah perpolitikan.*

Kata Kunci: *Utsman Ibn al-Jahiz, Bani Abbas, Mu'tazilah, Sastra Arab, dan Risalah.*

إن تاريخ الأدب العربي قد دوّن كثيرا خزائن الأدب العربي منذ ولادته إلى العصر الحديث دون فوت. ومهما كان ذلك، فإن الأدب لا يزال حيا ما دامت الحياة تدور وتتطور بما فيها من ترقية وانحطاط تمر مع مرور الأزمنة. والأدب العربي منذ ولادته إلى هذا الحين قد ولد كثيرا من الأدباء شاعرا كان أو ناثرا. والأعمال الأدبية التي أبدعها الأدباء كثيرة عديدة متنوعة الأجناس، كالقصص و المقامات والخطاب

* مدرسة قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا.

ومائة وولد في آخرها^٢ والصحيح أنه ولد في المحرم سنة ١٥٠ هـ/ فبراير ٧٦٧ م، في خلافة المنصور العباسي (١٢٦-١٥٨هـ). ولد الجاحظ والمصران - البصرة والكوفة- يزهران بالعمران ويتباريان في صنوف العلم والمعرفة، ويتافسان في ألوان العنوان والآداب. وقد اقترن ميلاد الجاحظ بميلاد النهضة السياسية والفكرية والآدابية في العصر العباسي الأول. شهد حضارة العرب الزاهرة، و قد عاصره اثنا عشر من خلفاء بني عباس وهم أشهر الخلفاء العباسيين وأعظمهم نفوذاً، أكثرهم خدمة للحضارة العربية الإسلامية، منهم المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم. من المشهور أن الجاحظ هو بصري، ولد ونشأ وعاش ومات ولم يغادرها إلا قليلاً إلى بغداد أو غيرها من العواصم والبلدان. نشأ فيها نشأة متواضعة، إذ روي أنه نشأ يبيع الخبز والسّمك بسيحان أحد أثمار بلده^٣. مر الجاحظ عدة مراحل الحياة، درج مرحلة طفولته في كنف أبويه حتى توفي والده وهو ناشئ صغير، فنشأ في كفالة أسرته الفقيرة. ولما ترعرع دخل الكتاب في البصرة يتعلم فيه القراءة والكتابة. فانتقل الجاحظ من طفولته إلى مرحلة الشباب وهي مرحلة الدراسة والتحصيل، درس فيها العلوم وتلمذ علي كبار اللغويين كأبي عبيدة

و الشعر و الرسالة و غير ذلك، كلها مدون في ديوان الأدبي العربي. و من هذه الأعمال الأدبية ما هي اشتهر ومنها ما لا يشتهر.

و الجاحظ مهما كان مشهورا بين الأدباء، و كتاباته كذلك معروفة فإن من بينها ما لم يشتهر اشتهارا كما اشتهر غيرها كرسالة التريبع والتدوير، مع كان هذه الرسالة لها آثار و خصائص في رحلة الأدب العربي. ولتوضيح هذه الرسالة ولمعرفة مكانتها بين الأعمال الأدبية الأخرى فأنا أريد أن أبحثها دراسة تحليلية.

لحة عن حياة الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ويقال أيضا بالحدقي لأنه كان ناتئ الحدقتين. و قد اختلف الرواة و المؤرخون في أصله، فقليل إنه عربي من كنانة، وقليل إنه كناني بالولاء، و لكن قطع المحققون بأنه كان كنانيا صليبية، أي أنه كان خالص النسب، عريق الأصل في العرب فهو عربي من سلالة عربية صريحة^١. ولو اختلف الرواة والمؤرخون في مولده، فإن هناك القول الفصل الذي لا يرتاب فيه ولا يشك في صوابه وهو ما قرره هو عن نفسه: أنا أسنّ من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين

اللغة والآداب وسائر بيئاتها. ومن التاريخ الأدبي العربي نعرف بأن الحياة الثقافية لقد ازدهرت ازدهارا فائقا في العصر العباسي بعد أن تلقت الحواضر الإسلامية الثقافات المختلفة من حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة. والثقافات التي كانت منتشرة وشائعة في ذلك العصر ولها أثر كبير في الأدب العربي فهي ثلاث:

١. الثقافة العربية : وهي الثقافة التي تعتمد علي القرآن الكريم وما يتصل به من علوم الدين، كالتفسير والفقه وغير ذلك. وبجانب ذلك اعتمدت هذه الثقافة علي الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كاللغة والنحو.

٢. الثقافة اليونانية : هذه الثقافة دخلت علي الفكر الإسلامي بتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلي العربية.

٣. الثقافة الفارسية : هذه الثقافة قد انتشرت انتشارا كبيرا علي يد الوزراء والكتاب الفارسيين، ونقله المثقفون الفارسيون الذين أجادوا العربية، أو العرب الذين أهتموا تراث الفرس القدم في الحضارة والثقافة. و بواسطة الفرس كذلك اتصلت الثقافة الهندية إلي العربية.

وهذه الثلاثة قد أثرت كثيرا ثقافة الجاحظ، ولكن الثقافة اليونانية لها دور هام في حياته الفكرية وتأثر به تأثرا كبيرا. وذلك ظهرت في بعض

والأصمعي وغيرهما حتي بلغ مبلغ الرجال واستكمل كل أسباب ثقافته وأخذ يكتب ويؤلف الكتب و الرسائل. تبدلت حياة الجاحظ من مرحلة الشباب إلي مرحلة الرجولة و الأستاذية الشهيرة، وهذه الفترة تبدأ وهو في ثلاثين من عمره. وفي هذه المرحلة طارت شهرة الجاحظ في البصرة والكوفة وبغداد وعواصم العالم الإسلامي وبين الأدباء والعلماء والمفكرين، وهذه الحالة قد بدلت حياته من الحرمان والفقرة إلي الغني والثراء، فطاب عيشه وكان في يده الرخاء. وقبل البحث عن ثقافة الجاحظ، فجدير بالذكر لمحة عن حياته الاعتقادية التي ذهب إليها الجاحظ. لقد اشتهر بأن الجاحظ كان معتزليا ويعد من زعمائها، و تلقي الاعتزال عن أستاذه أبي إسحاق النظام وهو من كبار المعتزلة. وقد خالف الجاحظ في بعض المسائل حتي أصبحت له فرقة تنسب إليه وتسمى الجاحظية، وهي طائفة عرفت بكثرة الجدل والحوار في ذلك العصر كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف^٤ وأما من الناحية الثقافية فكانت ثقافة أبي عثمان الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط سائر ألوان المعرفة الشائعة في عصره. فهو عالم من علماء الدين ويكون الطراز الأول للمتكلمين والباحثين في

والمكانة، وتشيع في شخصيته روح قوية ساحرة تملك العقل والعاطفة.

وأما من الناحية الجسمية فإن الجاحظ قبيح المنظر مشوه الوجه ناتئ العينين أسود اللون مختل القسما، ولبشاعة منظره حتى كان المتوكل لم يرضه لتأديب أبنائه. ولكن ولو كانت صورته الجسمية قبيحة، فإنه يستحق شخصية جليلة ومواهب كبيرة وذكاء لمحا وثقافات واسعة وآثاره الفكرية الخالدة.

وفاته

تبدأ مرحلة الجاحظ الآخرة بوفاة المتوكل ووزيره الفتح بن حقان في شوال ٢٤٧هـ، وكانت سنة عالية، والأيام تضعضع من قوته، والمرض تشتد وأصيب بفالج لزمه الراحة من جميع أعماله، ويبدو هذا المرض في خلافة الواثق وشفى منه ولكن أصيب للمرة الثانية بالفالج عام ٢٤٦هـ وظا مفلوجا حتى عام ٢٥٥هـ.

وفي خلافة المعتز بالله (٢٠٢-٢٠٢)

(٢٥٥) كان الجاحظ قد بات ممدودا محطما من أثر المرض والشيوخة، وكان ينتظر أحله صباحا ومساء، وكان مع ذلك فإنه لا يزال يعيش في عالم الفكر والكتب والقراءة. وفي شهر المحرم من عام ٢٥٥هـ كان الجاحظ قد بات جسما لا قوة فيه، وروحا

أعماله الأدبية كرسالة التبريع و التدوير.

مترلته بين أدباء عصره

إن الكلام عن مترلة الجاحظ بين أدباء عصره ربما يكفي علي ما قاله صاحب معجم الأدباء إذ يقول: ثلاثة علوم الناس كلم عيال فيها علي ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلي أبي حنيفة لأنه دون وخلج ما جعل من يتكلم فيه من بعجه مشيرا إليه ومخبرا عنه، وأما الكلام فعلي أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسان والعارضه فعلي أبي عثمان الجاحظ. تمتاز ثقافة الجاحظ بالغرارة والاستفاضه والموسوعية والاستطراد وهو من الأدباء الذين لهم فضل كبير في دراسة البلاغة العربية لأنه هو الذي وضع أصولها وقواعدها وكذلك النقد الأدبي. فهو عالم ذو منهج علمي مستقل دقيق، يعتمد علي التجربة وقوة الملاحظة ورصد الظواهر تحليلها وتعليها.

شخصيته

ما عرفنا شيئا من الجاحظ إلا إذا قرأنا كتبه المنبثرة فسوف نجد منها ثقافة واسعة وذوقا سليما وإحاطة تامة بالبيان والبلاغة وصنوف القول. وذلك كله يدل شخصية الرجل واضحة المعالم بينة الأثر

يدور بين الأفراد في تعزية أو تهنتة أو توصية أو عتاب وشوق ووعيد وغير ذلك مما يصور العواطف والصلوات الخاصة بين الأفراد.

وأما ما قصد برسالة التريبع والتدوير هي رسالة أنشأها أبو عثمان الجاحظ في هجاء وسخرية أحمد بن عبد الوهاب أحد أصحاب الوزراء محمد بن عبد الملك الزيات. ¹ وهذه الرسالة تكتب وتصدر بسبب وجود المخاصمة والمنافسة في ندوات الوزراء والأدباء، وكذلك بسبب وجود الخلاف بين المعتزلة والشيعة. ومن المعروف بأن الجاحظ هو المعتزلي، وكان خصمه أحمد بن عبد الوهاب شيعيا، وقد طعن علي الجاحظ ويغالي في ثلب آرائه يهجو وينقص مذهبه ودينه. فبين في تلك الرسالة الجاحظ عنه، ووصف ما هو له من ذمامة الخلق وقبح التركيب، إذ كان خصمه يدعي أنه جميل الصورة معتدل القامة وحسن التركيب.

وأما تسمية الرسالة بالتريبع والتدوير فإنه لا يتفصل من متن الرسالة نفسها، إذ تارة يدعي له الجاحظ الطول في البطن، وتارة ثانية يصفه بالقصر، وتارة أخرى يفتيها عنه، ثم يدعي له التريبع والتدوير ساخرا من جسم شكله.

قطعة من رسالة التريبع والتدوير

لايستطيع الدفاع عن نفسه عن غوائل المرض والأحداث، وهذه هي آخر حياة الجاحظ، مات عن مائة وخمس من السنوات قضاهما في الكتابة والمطالعة والدراسة، ولم يترك زوجا ولا ولدا، لأنه لا يتزوج طيلة حياته، ولكنه ترك مؤلفات كثيرة تزيد علي ثلاثمائة ومن أشهرها: البيان والتبيين، الحيوان، البخلاء، رسالة التريبع والتدوير، وغير ذلك.

رسالة التريبع والتدوير

الرسالة لغة من أرسل يرسل إرسالا، والاسم الرسالة والرّسالة والرسول والرسيل بمعنى التوجيه. و أما اصطلاحا فهي الخطاب المكتوب في غرض مخصوص يبعث به صاحبه إلي آخر. مما اشتهر في التاريخ الأدبي العربي أن العصر العباسي هو العصر الذهبي للكتابة الفنية، فقد نبغ فيه كبار الكتاب الذين جددوا في أساليب النثر ومعانيه، وفتحوا آفاقا جديدة للكتابة، ومن أنواع هذا الفن هو الرسالة.

وتنقسم الرسالة علي وجه إجمالي إلي قسمين: الرسالة الديوانية والرسالة الإخوانية. فالمراد بالرسالة الديوانية هي ما تصدر عن الدواوين لو ترد إليها خاصة بشؤون الدولة وصلاحها تيسيرا للعمل وتثبيتا للنظام العام. وأما الرسالة الإخوانية فهي ما

التحليل الأدبي

و من قطعة رسالة التربيع و التدوير المعرّضة ومن خلال تلك الرسالة، نحن نستطيع أن نحللها تحليلاً أدبياً بعد ملاحظة دقيقة. وهذه هي التحليلات التي نستطيع استنباطها. الغرض الأساسي من كتابة رسالة التربيع والتدوير هو الهجاء والتهمك والسخرية لخصم الكاتب وإبراز عيوبه وجهله، وذلك يبدو في أول الرسالة إذ يستهل الكاتب رسالته بكلمات التهمك والهجاء القاتل لعدوه. ومثال ذلك: كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط الطول ويدعي أنه مفرط القصر، وكان مربع وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاضرتة مدورا...

صورة كاركاتيرية

بني الجاحظ رسالته علي صورة كاركاتيرية رائعة ضاحكة لشكل خصومه أحمد بن عبد الوهاب وصفاته تجمع بين القصر والسمنة والتكروش. وهذه الفكرة أي الصورة الكاركاتيرية كانت معروفة في حضارة يزنان الأوساط، ولكن اليونان وضعتها في الأخلاق، والجاحظ فقد وضعها في الأجسام. ومما نعرف من قبل أن من إحدى الثقافات التي لها دور كبير في بناء ثقافة الجاحظ ومتأثر بها هي الثقافة اليونانية. والمثال من رسالة التربع والتدوير الذي يجمع بين القصر

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط الطول ويدعي أنه مفرط القصر، وكان مربع وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاضرتة مدورا، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه أخصم البطن، معتدل القامة، تام العظم. وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد، عادي القامة عظيم الهامة، قد أعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم، وكان كبير السن متقدم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد.

وبعد فأنت- أبقاك الله- في يدك قياس لا ينكسر، وجواب لا ينقطع، ولك حد لا يفيل، وغرب لا يثني، وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، أن تقول: وما علي أن يراي الناس عريضا وأكون في حكمهم طويلا، وأكون في حكمهم غليظا وأنا عند الله جميل، وفي الحقيقة مقودود رشيق. وقد علموا - حفظك الله- أن لك مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا، ولكن بينهم فيك- إذا قمت- اختلاف، وعليك لهم مسائل...

ما بين الخنفساء والعقرب؟ ولم ملح الحمض؟ ولم طوقت الحمامة؟ ... وغير ذلك.

والسمنة والتكرش: ... فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب...

الحوار والجدل

الحوار والجدل يأتيان في الرسالة علي طريقة الأسئلة كما تقدم المثال. خصائص أخرى من رسالة التربيع والتدوير ومزاياه، بني الجاحظ رسالته علي فن المفارقة، والمراد بها أنه يلاعب الألفاظ والمعاني بالمقابلة والمتناقضة، مثل بين القصر والطول أو بين التربيع والتدوير وغير ذلك. الرسالة مبنية علي سنة الاستطراد، المراد بالاستطراد هو: أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه علي غرض آخر لمناسبة بينهما، ثم يرجع فينقل إلي إتمام الكلام الأول. المثال: ... وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد. وبعد، فأنت- أبقاك الله- في يدك قياس لا ينكسر وجواب لا ينقطع...

المعاية والإلغاز الواردة في الأسئلة

وجه الجاحظ في رسالته مائة سؤال طلب من خصمه الجواب عنها، وهذه الأسئلة كلها علي شكل المعاية والإلغاز التي يصعب جوابه، وأكثرها من الأساطير والخرفات. مثال ذلك: ... وأخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرض في إنائه، أكان

الفكاهة

هذه الرسالة أتت علي وجه الفكاهة التي تجعل خصمه موضعاً للضحك لاستعمال الكاتب لغة فاكهة، ولكن مع أنه فاكهة ضاحكة فإنها عذبة راقية رائعة لا يفسد ويضيع معني الرسالة والغرض منها وهي الهجاء. والحقيقة كل جملة واردة في هذه الرسالة أتت فاكهة يشعرها كل من استحق الذوق السليم.

كثرة الاشتسهاد بالشعر والحكم والأمثال والإشارات التاريخية والاقتباس من القرآن الكريم. المثال من الاقتباس المأخوذ من القرآن الكريم: وقلت: والناس وإن قالوا في الحسن كأنه طاقة ربحان، وكأنه خوط بان، وكأنه قضيب خيرزان، وكأنه ضغن بان...

الإتيان بالأمثلة الكثيرة

والمراد بهذه الأسئلة هي للإطاحة والهجاء علي مروعة وعلوة خصمه وإظهار جهله وتمويهه. هذه الأسئلة بعضها لا يمكن جوابها لمن ليس له علوم كافية، كمسائل الأساطير والخرفات، مثل: ... أخبرني ما السحر وما الطلسم؟ وما صداقة

٤. محمد عبد الرحمن الوبيع، الأدب العربي وتاريخه، (دم: المكتبة العربية السعودية، (دت) ط. ٣، ص. ١١٤
٥. لسان العرب، ج. ١١ ص.
٦. شوق ضيف، الفن ومذاهبه في النشر العربي، (دم: دار المعارف، دت)، ط ١٠
- بحرا أجاجا استحال عذبا زلالا أم كان زلالا عذبا استحال بحرا؟ ... أكثر الجاحظ الصنعة البديعية، كالتورية و الطباق و المقابلة و التشبيهات و الاقتباس من الشعر و الأمثال وغير ذلك.

الخلاصة

وخلاصة هذا البحث هي:

١. الرسالة هي دليل من دلائل براعة الجاحظ وقدرته في تصنيف الأجناس الأدبية المتنوعة
٢. سحرية الجاحظ القاتلة وتمكمه المرير وغمراته الموجهة بضحيته ولو كان شرا علي ابن عبد الوهاب، فإنها يكون خيرا وبركة علي الأدب ومصدرا ثريا للأدباء والمتأديين في سائر الأزمنة.

الحاشية:

١. الجاحظ، الخلاء، (دم: دار اليقظة العربية، دت) ط. ٣، ص.
٢. محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، (دم: دار الطباعة المحمدية، دت) ص. ١٥
٣. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النشر العربي، (دم: ار المعارف: دت) ط. ١٠، ص. ١٠٤

المراجع

- خفاجي، عبد المنعم، محمد، أبو عثمان الجاحظ، (القاهرة: دار الطباعة الأزهر، دت)
- الزبيع، عبد الرحمن، محمد، الدكتور، الأدب العربي وتاريخه، (دم: المكتبة العربية اسعودية، ١٤١٠هـ) ط. ٣
- ابن زيدة، تاريخ الأدب العربي، (دم: دار المعارف، دت)
- ضيف، شوقي، الدكتور، الفن ومذاهبه في النشر العربي، (دم: دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، دت) ط. ١٠
- الجاحظ، الخلاء، (دم: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دت) ط. ٢
- الإسكندري، أحمد، و عناني، مصطفى، الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، (دم: دار المعارف، دت) ط. ٩
- أبو الفضل، العلامة، لسان العرب، (دم: دار الفكر، دت) خ. ١١